أسباب

سعادة المسلمين وشقائهم في ضوء الكتاب والسنة

تأليف

شيخ الحديث حضرة العلامة

محمد زكريا الكاندهلوي

نقله من الأردية الأستاذ الأديب

سعيد الرحمن الأعظمي

أستاذ دار العلوم لندوة العلماء — ومنشىء مجلة « البعث الإسلامى »

يطلب من

المكتبة الامدادية - باب العمرة

مكة المكرمة

(إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

« قرآن كريم »

أسباب سعادة المسلمين وشقائهم
في ضوء الكتاب والسنة

الطبعة الثالثة

عام ١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

بقـــلم : فضيلة الشيخ الداعية الكبير

أبي الحسن على الحسنى الندوى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، محمد وآله وصحبه الطاهرين الطيبين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعـــد ! فقد كثر التساؤل عن واقع المسلمين الحاضر وأسبابه وحارت العقول في فهمه وتعليله . وكثر الضجيج والعويل مما يدهم المسلمين من مصائب وحوادث ونكبات بين حين وآخر ، والشقاء الذى قد لزمهم ولج بهم ، حتى أصبح بعض الناس يعتقدون أن بين المسلمين وبين هذه الكوارث والملمات وبينهم وبين الشقاء والبلاء نسباً قريباً ورحماً ماسة ، وتمثل بعضهم ببيت للشاعر الإيرانى المشهور بأنورى كأنه ينشد بلسان حال المسلمين «إن البلاء إذا نزل من السماء بدأ بالسؤال عن بيت الأنورى ومقره لينزل عليه» واعتقد بعض الناس أن

الكوارث والنكبات إنما هى خبط عشواء ، ورمية فى ظلام وعماء وتمثلوا ببيت زهير بن أبى سلمى :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

ورأى بعض الناس فى ذلك تناقضاً مع ما استفاض وتواتر ونطق به القرآن ، ووردت به السنة من إيثار الله لهذه الأمة على الأمم ، واختيارها لحمل كتابه ، وإعزاز دينه ، والانتساب إلى نبيه ، فهى الأمة الأخيرة ، وهى الأمة المرحومة ، وهى الأمة المختارة ، وما وعد الله لها بالنصر ، والعزة ، والغلبة على الأعداء ، وظهور الدين على الأديان كلها ، هذا وقد أصبح المسلمون — خصوصاً فى هذا العصر — دريئة المصائب ، وغرض السهام ، وهدف الآلام ، «وأضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام»[1] .

وما نشأ هذا التساؤل المستمر ، وهذه الحيرة المدهشة إلا عن جهل لقانون المجازاة الدقيق الحكيم ، الذى اشتمل عليه القرآن وزخرت به دواوين السنة وكتب الحديث ، والغفلة عن الصلة الخفية المتينة الدائمة بين الأسباب والمسببات ، والنتائج والمقدمات ، وبين

---

(١) كلمة مقتبسة من خطبة طارق بن زياد فى الأندلس

الأعمال والأخلاق والآثار ، والنتائج فى حياة الأفراد وفى حياة الأمم وذلك علم نطقت به الكتب السماوية ، واختص به الكتاب الأخير ، الذى أكرم الله به محمداً صلى الله عليه وسلم وأمته ، حتى أصبح علماً مدوناً واضح المعالم ، بين الملامح ، ليس فيه التباس ولا غموض ، حتى استحق بذلك أن يسمى الطب القرآنى ، أو الطب النبوى ، يوازى طب الأجسام الذى توارثته الأجيال ، وتناقلته الأمم ، وتعاملت به الأطباء والحكماء ، فلكل عقيدة تأثير ، ولكل عمل نتيجة . ولكل خلق رد فعل . علمه من علم ، وجهله من جهل ، سعدت بعلمه أقوام ، وشقيت بجهله أقوام ، ونجت بالأخذ به أمم فى سالف الدهر ، وهلكت بتركه والثورة عليه أمم ، حكى القرآن قصصها فى وضوح وتفصيل .

وهذه الخواص والتأثيرات التى أودعها الله العقائد والأعمال والأخلاق دائمة بدوامها ، خالدة بخلودها ، كدوام الخواص والتأثيرات فى الأدوية والأغذية ، والحشائش والعقاقير ، والنباتات والمعادن ، بل أشد وأقوى ، إذ هى شريعة الله وسنته فى وقت واحد :

(وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً) .

فمن عرف هذا القانون الإلهى الخالد ، ومن اطلع على ما ورد فى الأحاديث الصحيحة من خواص الأعمال والأخلاق ، وما يكافىء الله به على صالحاتها وطيباتها من جزاء وجائزة ، ورحمة وبركة ، وسلامة

وعافية ، وما يعاقب الله به على الأعمال والأخلاق الفاسدة ، من عقوبات متجانسة وغير متجانسة ، وما خص بعض أنواع المعاصي والذنوب والآثام ، ببعض العقوبات والبلايا والأمراض . وما بين هذه الأعمال والأخلاق وبين هذه العقوبات والآفات من مناسبات دقيقة خضع لهذه الإرادة الإلهية القاهرة ، والحكمة الربانية الباهرة ، ووقف أمامها خاشعاً ، ولم يأخذه العجب فيما يشاهده فى أمته وفى عصره ، وآمن بقوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَـٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) ، وبقوله تعالى : (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) وأيقن أن ما يشاهده قليل من كثير ، وأن الرحمة الإلهية واللطف الربانى لايزال مع هذه الأمة . وأن ذلك ثمرة دعوات النبى صلى الله عليه وسلم التى دعا بها لهذه الأمة أن لا يعمها الله بعذاب ، ولا يستأصل شأفتها ، ولأنها تحمل الأمانة الأخيرة والرسالة الأخيرة ، ولأنها أمل الإنسانية الأخير .

إن هذا السؤال الذى كان ـ ولا يزال ـ يساور النفوس الكثيرة من المسلمين ، ويجول فى خواطرهم ، وقد تفيض به ألسنة الخطباء وأقلام الكتاب ، يستحق أن يستمع إليه ، ويتلقى فى رفق وحكمة ، وفى وعى وفقه ، ولكن فى شجاعة وصرامة . وكان فى حاجة إلى تحليل علمى ، واستعراض أمين لنصوص الكتاب والسنة . حتى يكون الجواب مقنعاً

شافياً لكل من يؤمن بالكتاب والسنة ، ويخضع بأحكامهما . ولا يقدر على ذلك إلا من اتسع نظره فى دواوين السنة ، وطال اشتغاله بها دراسة وتدريساً ، وشرحاً وإيضاحاً وتأملا وتعمقاً ، وتضلع من علوم الكتاب والسنة ، وتذوقها تذوقاً ، فأصبحت له علماً ونظراً ، وعملا وعقيدة .

وقد قيض الله لشيخنا المحدث الكبير العلامة محمد زكريا الكاندهلوى صاحب « أوجز المسالك » و « لامع الدرارى » من يوجه هـــذا السؤال ، ويطلب منه الجواب العلمى الشافى ، فى ضمن أسئلة وجهها إليه تدور حول واقع المسلمين . واختلافهم فى سياسة البلاد . وتنازعهم فى بعض الشخصيات . فبدأ يكتب فى هذا الموضوع . ويجيب عن هـــذه الأسئلة واحداً بعد واحد . حتى أصبح ما كتبه كتاباً مفرداً سماه « الاعتدال فى مراتب الرجال » نشره لما اشتمل من فوائد كثيرة ، ولما جاء فيه من مادة غزيرة تهم المسلمين جميعاً ، وقد نال هذا الكتاب قبولا عظيما كسائر كتبه ، وأعيد طبعه مراراً فى عدد ضخم ، ونال حظوة كبيرة عند رائدى الحق والصواب (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) .

وإن من أهم فصول هذا الكتاب ما يدور حول هذا السؤال والجواب عنه. وهو التفكير الذى قد أصبح الشغل الشاغل فى الأوساط الدينية والشعبية ولعل ما جاء فى هذا الكتاب فى هذا الموضوع هو أوسع بحث ، وقد

جاء فيه من الاستشهاد بالآيات والأحاديث ما لم نجده فى مقال آخر : (وَمَا شَهِدْنَا إلاَّ بِمَا عَلِمْنَا) .

وجزى الله زميلنا العزيز الأستاذ سعيد الأعظمى الندوى ، أستاذ دار العلوم لندوة العلماء ، ومنشىء مجلة « البعث الإسلامى » إذ نقله هو إلى العربية بقلمه البليغ السيال ، فأحسن إلى المسلمين جميعا ، وأضاف إلى المكتبة الإسلامية كتابا له قيمته الدينية التربوية ، ينتفع به المسلمون عامة ، وتنتفع به حلقات التعليم ، وجماعات التبليغ بصفة خاصة .

تقبل الله تعالى سعى المؤلف ، وجزاه أحسن الجزاء ؟

أبو الحسن على الحسنى الندوى
ندوة العلماء لكهنؤ — الهند —

بسم الله الرحمن الرحيم

مما لا شك فيه أن المسلمين محاطون بأنواع شتى من المشكلات الفردية والاجتماعية ، ولكن ماذا ينبغى لهم أن يفعلوا نحو التغلب على هذه المشكلات ؟

إن هذا السؤال باعث على الاستغراب إذا كان من قبل رجل مسلم عادى ، فضلا عن أن ينشأ فى نفس عالم من علماء الإسلام ، إذ أنه يعرف جيداً أن الإسلام دين أخبر الله بإكماله فقال :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً) .

فكيف يسوغ له أن يقع فريسة اليأس ، ويفكر فيما إذا واجه المسلمون أنواعاً من المشكلات ، ماذا يعملون . وكيف يعيشون ؟

إن الكتاب والسنة لم يدخرا وسعاً فى بيان منهج الحياة وتعاليم الدين والدنيا ، ووضع نظام شامل للحياة يحتوى على كل صغير وكبير ، وما يضر وما ينفع ، وكل ذلك فى أسلوب واضح صريح ،

ثم لم يكتف الإسلام بوضع النظام ، وبيان المنهج فحسب ، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم أقام مجتمعاً مثالياً تمثلت فيه تعاليم الإسلام فى شكل عملى ، وطبقها الناس على حياتهم ، ولذلك فإن سعادة الدين تتوقف على اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم .

أما إذا انقلبت الأوضاع ، وبدأنا نعتقد أن اتباع الرسول عليه السلام رجعية ، والعمل بسنته تزمت ، فكيف يرجى حسن العاقبة فى الآخرة ، ومصيرنا فى الدنيا ظاهر معلوم ! إن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بجميع ما فيها من أعمال وأقوال ككتاب مفتوح أمامنا بفضل الصحابة والمحدثين رضى الله عنهم ، فإذا قابلنا بحياته حياة الأمة الإسلامية نرى كيف أن السنن تفقد مكانتها من القلوب ، وكيف يتجرأ الناس على تركها ونبذها علناً وجهاراً ، بل وكيف تحارب السنن اليوم ، ويعتبر من يدعو إليها سفيهاً أو أحمق ، فأى ظلم أكبر من هذا ؟ وأى مبرر للمسلمين أن يشكوا من المشكلات والشقاء ؟ ويبكوا على البلايا والمحن ، وقد قال الله تعالى بكل صراحة وإعلان :

(وَمَآ أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ، وَمَآ أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الأَرْضِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلاَ نَصِيرٍ) — سورة الشورى — وقال فى سورة

الروم : (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .

والآيات الكريمة فى هذا المعنى كثيرة معلومة ، وقد تحدث على بن أبى طالب رضى الله عنه عن الآية الأولى فقال : ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله عز وجل ، وحدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) وسأفسرها لك يا على ! ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم .

وقال الحسن البصرى رضى الله عنه : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفس محمد بيده ما من خدش عود ، ولا اختلاج عرق ، ولا عثر قدم إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر » .

وعن الضحاك رضى الله عنه قال : ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب .

ثم قرأ الضحّاك : (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ) .

ثم يقول الضحاك : وأى مصيبة أعظم من نسيان القرآن .

وقد تكون العلة فى الحوادث والمصائب غير ما ذكرت ، ولا يبتلى بها العامة وحدهم ، بل تصيب الأنبياء والأبرياء أيضاً ،وإننى بهذه المناسبة لا أتعرض لشرح هـذه الآيات والأحاديث : حتى أحتاج إلى ذكر الاحتمالات والإشكالات الواردة عليها ، وإنما أريد الإشارة إلى تلك القوانين والأسباب التى تشير إليها الأحاديث الآنفة الذكر ، ومن قوة هذه الأسباب قد يصيب ضررها بعض من لا علاقة لهم بهذه المعاصى ، وقد جاء فى حديث عن عائشة رضى الله عنها ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « يكون فى آخر هذه الأمة خسف ، ومسخ ، وقذف » ، قالت : قلت : يا رسول الله ! أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا ظهر الخبث » — رواه الترمذى .

وإذا كثر الخبث لا يحول دون عذاب الله شىء ، بالرغم من وجود الصالحين والعلماء .

وقد وردت أحاديث متعددة بعناوين مختلفة فى معنى التواصى بالخير ، والمنع عن الشر ، وإلا فإن الله سبحانه يسلط عـذاباً من عنده ، فعن حذيفة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « والذى نفسى بيـده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنـكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً من عنده ، ثم لتدعنه ولا يستجاب لـكم » .

— رواه الترمذى —

وعن جرير بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول « ما من رجل يكون فى قوم يعمل فيهم بالمعاصى يقدرون على أن يغيروا عليه ولا يغيرون ، إلا أصابهم الله منه بعقاب قبل أن يموتوا » .

— رواه أبو داود وابن ماجه —

وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوحى الله عز وجل إلى جبريل عليه السلام أن اقلب مدينة كذا وكذا ، فقال : يارب ! إن فيهم عبدك فلاناً لم يعصك طرفة عين ، قال : فقال : اقلبها عليهم وعليه ، فإن وجهه لم يتمعر فى ساعة قط » .

وهناك مئات من الأحاديث تحتوى على معنى الوعيد ، إذا لم يتألم المرء بالمنكرات ، يعنى إذا لم يقدر على تغييرها فلا بد من أن يستنكرها، ويتألم منها .

ولننظر الآن إلى الحالة التى نعيش فيها ، ونفكر فى العقوبات والبلايا التى نستحقها . بالنسبة إلى المعاصى والذنوب التى تصدر منا ، وبالنسبة إلى تألمنا وقلقنا بالمنكرات التى نشاهدها ، وكيف يرجى — وحالنا هذه — أن تستجاب دعواتنا ، وتنحل مشكلاتنا ، وتنقرض المحن التى نعانى منها ، وإذا كان الله لا يأخذنا بعذاب يفاجئنا ، ونقمة تقضى علينا جميعاً ، فذلك بفضل رحمة الله علينا ، ودعاء نبيه صلى الله عليه وسلم .

لقد أصبحنا نحن المسلمين نعتز اليوم بكل معصية ، ونشق الطريق

لـكل منكر ، ونرى كل من يدعو إلى الـكفر بعين ملؤها غبطة ، فإن اعترض عليه أحد أو أنكر عليه يعتبر رجعيا ، وممن يستحقون الطرد والحبس ، لأنه يعوق المجتمع عن التقدم ، ويحول دون طريقه إلى النهضة والمدنية ، سبحان الله ! ما أعظم الفرق بين أمسنا ويومنا .

هذا ، ونشير الآن إلى بعض الفروع . مما له صلة ماسة بالموضوع فالجميع يعلم أن الصلاة فى الإسلام تحتل المحل الأول بعد الإيمان ، وقد وردت الأحاديث الكثيرة فى بيان أهمية الصلاة ، وأن تركها يؤدى إلى الكفر ، وقيل : إن الصلاة فارق بين الكفر والإسلام ، أما الأضرار والخسائر التى تلحق المرء بترك الصلاة فقد ذكرتها بإيجاز فى رسالتى « فضائل الصلاة » ولـكننى أتساءل : ما هو عدد أولئك المسلمين الذين يهتمون اليوم بهذه الفريضة ؟

وأدهى من ذلك وأمر أنه لا يوجد هناك من يحاسب تاركى الصلاة ، وينبههم على ذلك . وينذرهم بسوء مصيرهم إذا لم يصلوا ، وإذا أمكنت محاسبة الفقراء من المسلمين ، فلا تمكن محاسبة الطبقة العليا أو الأغنياء ، أو الذين يملكون نوعا من الجاه والشرف ، إنه لا يتجرأ أحد أن يستنكر منهم هذا الذنب ، ويتكلم كلمة خوفا من أن تسوءهم ، وقد بلغ اليوم من جراءة بعض السفهاء أن يجاهر بترك الصلاة ، ويعلن أن الصلاة ليست عبادة ، ومن سوء حظنا أنه يثنى

عليه وأمثاله ، ويعتبره بعض الناس صديقا للمسلمين ، وعارفا بمتطلبات العصر ، وقضايا الحياة المعاصرة ، فلا يعارضه عندهم إلا جاهل ، أو من لا يصلح إلا للإمامة فى الصلاة ، والذى يجهل مصالح الساعة ، ومطالب الوقت ، وحاجة المسلمين .

وقد جاء فى الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قرة عينى فى الصلاة » ولكن الذى يدعى أنه من أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم يعتبر الصلاه شيئاً زائداً . وهو الذى يتناوله الناس بالإجلال والإكرام ، ويعترفون بدقة نظره ، وسداد تفكيره .

كيف يشتكى المسلمون من الحوادث والنوازل التى تفاجئهم من فينة لأخرى ، وقد تغيرت أحوالهم وحياتهم رأسا على عقب ، بل يجب أن يفكروا فيما إذا نزلت عليهم مصيبة أو فاجعة ، أنها لم تنزل بهم إلا لأنهم سببوا لها ، وأنهم كانوا يستحقون ذلك بما كسبت أيديهم ، وأن يقولوا : لولا رحمة الله وفضله علينا لم يبق لنا ذكر ولا أثر ، وكنا قد أصبحنا فى ذمة التاريخ .

هذا عن الصلاة ، أما عن صلتنا بأركان الإسلام الأخرى من الصيام ، والزكاة ، والحج ، فليست إلا ضعيفة ، وليس عدد العاملين بها إلا قليلا جداً ، ولكن ولوعنا بالمحرمات والمحظورات فى تزايد مستمر . ولنأخذ الخمر مثلا ، فإنها نالت لدى كثير من المسلمين انتشاراً ورواجا ، حتى إنهم يتعاطونها بجراءة بالغة من غير حياء

ولا خجل ، وقد نبه القرآن على تحريمها فى آيات كثيرة ، وأمر بالابتعاد عنها ، بكل صراحة ، وقد جاء فى الحديث :

حدثنا أبو العباس أنبأنا محمد بن عبد الله أخبرنا ابن وهب أخبرنى مالك بن حسين الزيادى أن مالك بن سعد التجيبى حدثه أنه سمع عبدالله ابن عباس رضى الله عنهما يقول : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام ، فقال : يامحمد ! إن الله لعن الخمر وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وشاربها ، وبائعها ومبتاعها ، وساقيها ومسقاها » . — هذا حديث حسن ، صحيح الإسناد ولم يخرجاه —

فلننظر ، ما أكثر من يبتلى من الناس بلعنة الله ورسوله من أجل حرام هى الخمر ، وكيف ستكون عاقبة هؤلاء الذين تحيط بهم اللعنة من الله الرؤوف بعباده ، ومن الرسول العطوف على أمته ؟ ولا تبتعد اللعنة عن الذين يسكتون على هذا المنكر ، رغم قدرتهم على تغييره ، ولننظر إلى ما بلغت إليه حالتنا حول إنكار المنكر وتغييره ، إذ أننا لا نلبث أن نرمى الذين يريدون هذا التغيير بالتزمت والرجعية . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الخمر فإنها مفتاح كل شر » ، ولكننا حينما نستفتح أبواب الشر بأيدينا كيف نشكو انتشار السيئات ، وما دمنا نعلم أن فتح هذا الباب يرادف معنى فشو المنكرات . وعموم البلايا والشدائد ، لماذا نضج ونشكو عندما

تأخذنا المحن ، وتفاجئنا النوازل ، إنها لسفاهة وجهل يجب أن نتجنبهما .

ولنأخذ الربا مثلا ، ونتأمل فيما جاء حوله من إنذار ومنع فى الكتاب والسنة ؛ فقد آذن الله سبحانه بحرب ضد الذين يتعاملون بالربا ثم لا ينتهون ، يقول :

(وَإِنْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ)

وذلك لأن الناس فى الجاهلية كانوا يتعاملون بالربا . فلما جاء الإسلام نهاهم عن ذلك ، حتى عن تنفيذ ما سبق من التعامل الربوى ، فضلا عن أخذ الربا من جديد .

وورد فى الحديث ما ينذر بخطر الربا ، وما يترتب عليه من عقاب وسخط من الله ، وقد جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الربا سبعون جزءاً ، أيسرها أن ينكح الرجل أمه » ولا شك أن النيل من عرض المسلم أدهى وأمر من الربا . وفى حديث آخر : « لعن الرسول صلى الله عليه وسلم آكل الربا ، وموكله ، وكاتبه ، وشاهديه ، وقال : هم سواء » .

أما إذا نقدنا تعامل الناس اليوم على مقياس الشريعة ، فلا نجد ما يخلو من تعامل ربوى إلا قليلا جداً ، وأشد من ذلك أننا لا نتلكأ فى استباحة الربا جهراً ، ونصدر حول ذلك كتباً ومؤلفات ، ويضيق

الخنـاق على من عارض فى هذه القضية ، وهو يواجـه ألوانا من التهم والافتراءات ، ثم هو يحارب محاربة شديدة ، ويقاطع فى بعض الأحيان.

وقس على ذلك الأحكام الشرعية الأخرى ، التى لا تنال قيمـة فى أعيننا ولا أهمية ، ولا نقيم لها وزناً ما ، كما أن المنـكرات والسيئات من الأعمال التى تحذر منها الشريعة ، وتنهى عن اقترافها ، تجد كل تقدير وتحبيذ ، ولا نرى أى عار فى ممارستها ، والتجاهر بها ، بكل حرية ووقاحة ، من غير أن يوجد هناك من يستنكرها ، أو ينهى عنها ، فإذا تشجع أحد على الاستنكار والحيلولة دونها ، لا يعتبر محمود العـاقبة .

وبعد هذه الأمثلة التى ضربتها أقدم لـكم طائفة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، يتبين بها مدى انحرافنا عن الجـادة ، وحيدنا عن الطريق ؛ وذلك ما يسبب لنـا كوارث ونـكبات ليست إلا من كسب أيدينا ، وما دام المسلمون يصدقون النبى صلى الله عليه وسلم يجب عليهم أن لا ينسوا نتائج الأعمال التى أخبر بها أمته . فإن النتائج تابعة دائمـاً للأعمال والأخـلاق ، فمن أراد ان يتجنبها ، فليترك الأعمال التى تأتى بنتائج وخيمة شأن الذى يريد أن لا يحترق جسمه من النـار فيبتعد عنها جهد الطاقة .

عن على رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« إذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء » ، قيل : وما هى يا رسول الله ؟ قال : « إذا كان المغنم دولا ، والأمانة مغنما ، والزكاة مغرماً . وأطاع الرجل زوجته ، وعق أمه ، وبر صديقه ، وجفا أباه ، وارتفعت الأصوات فى المساجد ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وشربت الخمور ، ولبس الحرير ، واتخذت القينات والمعازف ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء أو خسفاً ، أو مسخاً » . الجامع الصغير (ت) للترمذي عن (صح) ج ٢ ص

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إذا اتخذ الفىء دولا ، والأمانة مغنما ، والزكاة مغرماً ، وتعلم لغير الدين، وأطاع الرجل امرأته ، وعق أمه ، وأدنى صديقه ، وأقصى أباه ، وظهرت الأصوات فى المساجد ، وساد القبيلة فاسقهم ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وظهرت القينات والمعازف ، وشربت الخمور ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء ، وزلزلة وخسفاً ومسخاً وقذفاً ، وآيات تتتابع كنظام بال قطع سلكه فتتابع » ـ رواهما الترمذى ، وذكرهما فى المشكاة بروايته ، وذكر صاحب « الإشاعة » حديث على رضى الله عنه بأطول منهما ، وفى « مجمع الزوائد » من حديث عوف بنحوه ، وفيه : وقعدت الحملان على المنابر ، واتخذ القرآن مزامير .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ما ظهر الغلول فى قوم إلا ألقى

الله فى قلوبهم الرعب ، ولا فشا الزنا فى قوم إلا كثر فيهم الموت ، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق ، ولا حكم قوم بغير حق إلا فشا فيهم الدم ، ولا ختر قوم بالعهد إلا سلط عليهم العدو . ـ رواه مالك ـ .

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا معشر المهاجرين ! خمس خصال إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن ، لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها ، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين ، وشدة المؤونة ، وجور السلطان عليهم . ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم ، فأخذوا بعض ما فى أيديهم ، ولم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم » ـ رواه ابن ماجه واللفظ له ، والبزار ، والبيهقى ، ورواه الحاكم بنحوه من حديث بريدة ، وقال : صحيح على شرط مسلم ، ورواه مالك بنحوه موقوفاً على ابن عباس ، ولفظه : ما ظهر الغلول فى قوم إلا ألقى الله فى قلوبهم الرعب ، ولا فشا الزنا فى قوم إلا كثر فيهم الموت ، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق ، ولا حكم قوم بغير حق إلا فشا فيهم الدم ، ولا ختر قوم بالعهد إلا سلط عليهم العدو . ورفعه الطبرانى وغيره إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

الختر بالخاء المعجمة والتاء المثناة فوق : هو الغدر ونقض العهد ؛ والسنين: جمع سنة، وهى العام المقحط الذى لم تنبت الأرض فيه شيئاً ، سواء وقع قطر أو لم يقع .

وجاء فى حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يبيت قوم من هذه الأمة على طعم وشرب ، ولهو ولعب ، فيصبحوا قد مسخوا قردة وخنازير ، وليصيبنهم خسف وقذف ، حتى يصبح الناس فيقولوا : خسف الليلة ببنى فلان ، وخسف الليلة ببنى فلان بدار فلان ، ولترسلن عليهم حجارة من السماء . كما أرسلت على قوم لوط ، على قبائل فيها ، وعلى دور ، ولترسلن عليهم الريح العقيم ، التى أهلكت عاداً ، على قبائل فيها : وعلى دور لشربهم الخمر ، ولبسهم الحرير ، واتخاذهم القينات ، وأكلهم الربا ، وقطيعة الرحم » .

— رواه أحمد والبيهقى وصححه الحاكم —

وفى حديث آخر عن أبى بكرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخر له فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم » - رواه ابن ماجه والترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح ؛ والحاكم وقال : صحيح الإسناد ، ورواه الطبرانى وقال : فيه من قطيعة الرحم والخيانة والكذب ، وإن أعجل البر ثواباً لصلة الرحم ، حتى أن أهل البيت ليكونوا فجرة ، فتنمو أموالهم ، ويكثر عددهم ، إذا تواصلوا .

وعن أبي بكرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة ، إلا عقوق الوالدين فإن الله يعجله لصاحبه فى الحياة قبل الممات » .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم . وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم » .

وانظروا كيف يتحدث النبي صلى الله عليه وسلم ببالغ الاهتمام : « والذى نفسى بيده ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً منه ، فتدعونه فلا يستجيب لكم » .

وجاء فى حديث آخر يقول : « إن الله تعالى لا يعذب العامة بعمل الخاصة ، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم ، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرون ، فإذا فعلوا ذلك ، عذب الله الخاصة والعامة » .

— رواه فى شرح السنة —

ولا شك فى أن هذه هى الأمور التى تسبب الكوارث والنكبات الجديدة ، كالزلازل ، والأعاصير ، والفيضانات ، والمجاعات ، واصطدام القطارات ، وما إلى ذلك من الحوادث التى تتجدد كل يوم ، مما لا يأتى عليه الحصر . وكذلك الأمراض الجديدة والمصائب الحديثة التى انتشرت اليوم فى كل مكان . بينما لم يكن لها وجود من قبل . ويعرف ذلك من له اطلاع على الأمور . ومعلومات بالقضايا والمشكلات . وبما

أننا أغلقنا على أنفسنا باب النهى عن المنكر . والأمر بالمعروف . لا ترجى استجابة الدعاء . وهل يكفى دعاؤنا فى الصلوات ما دمنا آخذين بأسباب تحول دون استجابة الدعوات ؟؟

وقد ورد فى أحاديث كثيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الراشى والمرتشى ، وفى بعضها لعن الرائش ، أى الذى يتوسط بينهما ، ونهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن الظلم ، فإنه يحول دون استجابة الدعاء ، وقال : « إن الله يملى الظالم عسى أن ينتهى عن ظلمه ، ولكنه إذا بطش بالظالم لم يتركه » .

وجاء فى القرآن الكريم :

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى ، وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) .

فلننظر إلى الاعتداءات التى يقوم بها الناس بعضهم على بعض أليس الله يراها ؟ ولا يأخذ أهلها بالمصائب والشدائد ؟ وقد جاء فى الحديث : « إن الذين يستجاب دعاؤهم ، المضطر والمظلوم ، وإن كان فاجراً » وفى رواية : وإن كان كافراً .

وورد فى الحديث عن على رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله : اشتد غضبى على من ظلم من لا يجد ناصرا غيرى » — رواه الطبرانى — وقد قال الشاعر الفارسى ما معناه : اتق

دعاء المظلوم فإنه لا يدعو دعاء الا وتتبادر إليه الاستجابة . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من لا يرحم من فى الأرض لا يرحمه من فى السماء » — رواه الطبرانى — ولا غرابة فيما إذا كثرت دعوات المظلومين ، وتزايدت أن تنصرف رحمة الله عن أهل الأرض ، وتنزل عليهم الصواعق ، وتحيط بهم الكوارث ، فإن دعوة المظلوم لا ترد ، كما مر آنفا ، وكما روى ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث معاذا إلى اليمن فقال : « اتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » — رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى —

ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تزال أمتى بخير، ما لم يفش فيهم ولد الزنا ، فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب » — رواه أحمد —

وبصرف النظر عن المواخير السرية ، لا نجد أى مدينة تخلو عن الفواحش، وحيث لا تمارس الفاحشة جهارا ولا تكثر فيها أولاد الزنا، حتى يضطر المسئولون فى البلدية إلى إنشاء محاضن خاصة بهم ، وقد أنذر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بنزول عذاب الله حيث تظهر الفاحشة ويكثر الزنا ، والربا ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا ظهر الزنا والربا فى قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله » — رواه الحاكم —

يجب أن نقف هنا وقفة المتأمل .... ودارس الأوضاع . لكى ندرك فداحة هذا الخطر المحدق بنا ، فكم من رجال يبتلون بهذه المعاصى

ويصابون بهذه الأدواء التى تؤدى إلى نتائج وخيمة جدا . تلك التى أنذر بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتى نعانى منها اليوم شيئاً كثيراً.

وورد فى روايات عديدة : أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب أو صورة ، وعن أبى وائل قال : غزوت مع عمر رضى الله عنه الشام ، فنزلنا منزلا ، فجاء دهقان يستدل على أمير المؤمنين ، حتى أتاه ، فلما رأى الدهقان عمر سجد ، فقال عمر : ما هذا السجود ؟ فقال : هكذا نفعل بالملوك ، فقال عمر : أسجد لربك الذى خلقك ، فقال : ياأمير المؤمنين إنى قد صنعت لك طعاما فأتنى ، قال : فقال عمر :هل فى بيتك من تصاوير العجم ؟ قال نعم ! قال : لا حاجة لنا فى بيتك ، ولكن انطلق فابعث لنا بلون من الطعام ولا تزدنا عليه ، قال : فانطلق فبعث إليه بطعام فأكل منه — رواه الحاكم —

إن نظرة واحدة على بيوت الناس اليوم تكشف لنا أن تزيينها لايتم إلا بالصور ، من غير أن يتجرأ أحد من المشايخ أو العلماء أن يتفوه بكلمة ضدها ، فما بالنا نخلق علينا أبواب الرحمة ، ونستدعى أسباب الشقاء والعذاب ، ثم نشكو ونصرخ حينما تغشانا المصائب والمشكلات ، فبينما كان سلفنا الصالح لم يرضوا بالدخول فى بيت فيه صورة ، نحن نرحب بكل صورة ، نعلقها فى بيوتنا للزينة والجمال ، اقرأوا الحديث التالى واستعرضوا الأحوال التى يرضى بها المسلمون ، وإعراضهم المدهش عن تعاليم دينهم ، يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « ما طلعت شمس قط إلا

بعث بجنبتيها ملكان يناديان ، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : يا أيها الناس ! هلموا إلى ربكم ، فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، ولا آبت شمس قط إلا بعث ملكان يناديان ، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : اللهم أعط منفقا خلفا ، وأعط ممسكا تلفا » — رواه أحمد بإسناد صحيح واللفظ له ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وصححه .

ينبغى أن نفكر فيما يدخره الناس من أموال بالبخل والشح ، ولا ينفقون ذلك ، لا فى سبيل الله ولا فى سبيل راحتهم ، كيف أنهم يؤخذون بأنواع المشكلات والبلايا التى تكلفهم نفقات باهظة ، وقد تعتريهم الأمراض المنوعة التى تفنى معظم أموالهم المدخرة ، وقد يكون الولد خلفا ينثرها من غير رفق ولا هوادة ، حتى ينفد كل ما جمعوه من الثراء والأموال ، هذه أمور ليست من الافتراضات التى يصنعها الإنسان ، بل إنها حقائق واقعة ، يواجهها الناس كثيراً فى الحياة ، وقد ورد فى أحاديث متعددة أن الإنسان يعتقد أن ماله ليس إلا لنفسه على أنه لا يتمتع به فى أكثر الأحيان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول العبد : مالى ! مالى ! وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فاقتنى ، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس » — رواه مسلم .

وجاء فى رواية عن على رضى الله عنه أنه قال : إن فضل مالك ليس إلا لغيرك وأنت خازنه ، وهناك أحاديث كثيرة تحتوى على هذا المعنى ، وقال الله تعالى :

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ) .

يقول ابن عباس رضى الله عنه : العفو ما يتوفر عن الأهل والأولاد .
ولا يفوتنا فى هـذه المناسبة أن نذكر فيما يدل إليه الإسلام من طرق « مكافحة الفقر » الذى ينال لدى الدول المتخلفة أهمية كبرى ، وتعتمد عليه فى استلفات أنظار الشعب ، وكسب إقبال الجماهير وما أعظم الفرق بين رجل يؤمر أن لا يدخر عنده أكثر مما يحتاج إليه ، وبين رجل يحث على أن لا يدخر عنده أكثر من حاجته ، وينفق على الفقراء ما يفيض عنها برضاه ، فإن الأول ظلم محض ، والآخر خير خالص ، وفى الأول كبت لحرية الكسب ، وتثبيط الهمم ، وتعطيل النشاط ، وفى الثانى تشجيع على كسب ما أمكن ، وبذل الجهود فى المكاسب والخيرات ، ثم الإنفاق على الفقراء والمساكين وأصحاب الحوائج .
ولا يختص الترغيب فى الإنفاق بفضل المال الذى يتوفر عن الحاجة ، بل يستحسن جداً صرف النظر عن المطالب ، وإيثار الغير على النفس ، فقد قال القرآن فى مدح الأنصار :

(يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) .

ولم يكن إيثارهم هذا مجرد إعلان وذكر ، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم قدم نماذج عملية له ، واتبعه أصحابه رضى الله عنهم فى هذه الأسوة بالعمل ، تشهد بذلك سيرهم ، وتزخر كتب الزهد والرقاق بهذا

الموضوع ، وإننى لا أريد فى هذه المناسبة أن أخوض فى التفاصيل ، وإنما أريد الإشارة فقط إلى أن المشكلات والعوائق التى نبتلى بها ليست إلا من كسب أيدينا .

وقد دلنا النبى صلى الله عليه وسلم على أسباب المصائب والنكبات التى لا مراء فيها ، كما وصف لنا علاجها أيضاً ، ولا أصدق مما جاء به النبى عليه الصلاة والسلام وحدثه سواء آمن به أحد أم لم يؤمن ، وقد قال عليه السلام : « لقد جئتكم بها بيضاء نقية » وقال أيضاً : « وأيم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء » — جمع الفوائد — فلم يترك صلى الله عليه وسلم جزأ من الأجزاء ، ولا ركنا من الأركان لحياة الإنسان إلا وقد حدث عنه وأشار إليه ، يتحدث عن الفتن فيقول: « بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ، ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا ، يبيع دينه بعرض من الدنيا » — المشكاة .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا أيها الناس ! توبوا إلى الله قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له ، وكثرة الصدقة فى السر والعلانية ، ترزقوا ، وتنصروا ، وتجبروا » — رواه ابن ماجه — وجاء فى رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما نقص مال من صدقة ، ولا عفا رجل عن مظلمة

إلا زاده الله بها عزا ، فاعفوا يعزكم الله ، ولا فتح رجل على نفسه باب المسألة إلا فتح الله عليه باب فقر » — رواها فى المعجم الصغير .

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أبغض المسلمون علماءهم ، وأظهروا عمارة أسواقهم ، وتناحروا على جمع الدراهم ، رماهم الله عزوجل بأربع خصال : بالقحط من الزمان ، والجور من السلطان ، والخيانة من ولاة الأحكام ، والصولة من العدو » — رواه الحاكم — ، وعنه أيضا قال : « جزاء المعصية الوهن فى العبادة ، والضيق فى المعيشة ، والنقص فى اللذة » — تاريخ الخلفاء — . وعن أنس رضى الله عنه قال : خدمت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشر سنين ، ولم يعبس فى وجهى . . . ثم قال : يا بنى ! أسبغ الوضوء ، يزد فى عمرك ويحبك حافظاك ، ثم قال لى : يا بنى ! إن قدرت أن تجعل من صلاتك فى بيتك شيئا ، فافعل ، فإنه يكثر خير بيتك ، ثم قال لى : يا بنى ! إذا دخلت على أهلك فسلم ، يكن بركة عليك وعلى أهل بيتك » ـ رواه الطبرانى فى المعجم الصغير .

كل هذه الروايات تشير إلى أن المعاصى وكثرة الذنوب إذا كانت تسبب النكبات والحوادث ، وتصنع المشكلات والعراقيل ، كانت الطاعة لله ، والعبادة له ، والعمل بتعاليمه ، سبباً كبيراً لسعادة المرء ، وكفيلة له بالنجاح فى الدنيا والآخرة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يقول : يا ابن آدم

تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى . وأسد فقرك ، وإن لا تفعل ملأت يديك شغلا ، ولم أسد فقرك » ـ رواه فى الجامع الصغير برواية أحمد والترمذى ، وابن ماجه والحاكم عن أبى هريرة .

هذا الحديث القدسى وما أشبهه من الروايات يشير إشارة واضحة إلى أن السعادة والنجاح يتوقفان على عبادة الله ، ولكن العبادة هى التى تواجه اليوم كثيراً من الجور والظلم من بين سائر الواجبات الدينية غيرها ، فالمسلمون اليوم فى أغلب الأحوال يغفلون أوقات العبادة وراء اكتساب الدنيا .

وما دامت هى حالنا ، وزاد انهماكنا فى لذاتنا ، كيف لا تتفاقم الأخطار والمشكلات التى تحدق بنا من كل جانب ، إن المسلمين لن يتمكنوا من التوصل إلى حل مشكلاتهم بالاستغناء عن الدين ، فقد قرأنا فى الروايات الآنفة الذكر أن الله يعد بالفقر وشغل القلوب بالهموم اذا لم يتفرغ المرء لعبادته ، وقد ورد فى الحديث الصحيح أن الله تعالى يقول ما معناه : « إن العباد إذا أطاعونى نزلت عليهم الأمطار ليلا وهم نائمون وطلعت لهم الشمس نهاراً ، ولا يسمعون صوت الرعد » .

ولكن شؤم أعمالنا يحول دون النظام الطبيعى للفصول ، واختلاف المواسم والطقوس ، فنعانى من قلة الأمطار ، وكثرة الجدوب والمجاعات ، وعذاب السيول والفيضانات ، بله نزول أمطار الرحمة ، وتأمين الأرواح والأموال من الخوف والحزن .

ويروى عن كعب الأحبار أنه قال : أصاب الناس قحط شديد على عهد موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج موسى ببنى إسرائيل يستسقى بهم ، فلم يسقوا ، حتى خرج ثلاث مرات ولم يسقوا ، فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام : إنى لا أستجيب لك ولا لمن معك وفيكم نمام ، فقال موسى : يارب ومن هو ؟ حتى نخرجه من بيننا ، فأوحى الله عز وجل إليه : ياموسى أنهاكم عن النميمة ، وأكون نماماً ! فقال موسى لبنى إسرائيل : توبوا إلى ربكم بأجمعكم عن النميمة ، فتابوا فأرسل الله تعالى عليهم الغيث .

وقال سفيان الثورى : بلغنى أن بنى إسرائيل قحطوا سبع سنين ، حتى أكلوا الميتة من المزابل ، وأكلوا الأطفال ، وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال ، يبكون ويتضرعون ، فأوحى الله عز وجل إلى أنبيائهم عليهم السلام : لو مشيتم إلى بأقدامكم حتى تحفى ركبكم ، وتبلغ أيديكم عنـــان السماء ، وتكل ألسنتكم عن الدعاء ، فإنى لا أجيب لكم داعياً ، ولا أرحم لكم باكياً ، حتى تردون المظالم إلى أهلها .

وتزخر كتب التاريخ والحديث بمثل هذه الوقائع والحديث ، كما أن هناك مئات من الروايات التى تحتوى على معنى تأثير الأعمال فى الحياة ، وأن الإنسان إذا كان صالحاً فى أعماله ، مرضياً فى سيرته ، يدرك سعادة الدنيا والآخرة ، أما إذ كانت أعماله غير مرضية ،

فإنما يخسر منافعهما ، ويواجه من الآلام والمصائب ما يشقى به في الحياة .

فإذا كانت أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم مما نؤمن به و نصدقه ، فمن الظلم الصريح أن نعرض عنها ، ونلقى بأيدينا إلى التهلكة ، ونستحق أصناف العذاب والمصائب ، ثم نشكو من ضعف المسلمين ومحنهم ، إن مثلنا كمثل مريض ينطلق بطنه ، ولكنه عوضاً عن أن يستعمل دواء يكافح المرض يداويه بدواء الإسهال . إننا نخاف بطش الحكومات ، ونعانى من إضطهاد الدول ؛ ولكننا لا نفكر فيما صرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « كما تكونون كذلك يؤمر عليكم » فإن كنا نريد أن يؤمر علينا رجال صالحون يجب علينا أن نقبل على الأعمال الصالحات ، ولا نبغى عنها عوضاً .

ففي حديث آخر :

عن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يقول : أنا الله ، لا إله إلا أنا ، مالك الملوك ، وملك الملوك ، قلوب الملوك في يدى ، وإن العباد إذا أطاعونى حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرحمة والرأفة ، وإن العباد إذا عصونى حولت قلوبهم بالسخط والنقمة ، فساموهم سوء العذاب ، فلا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على الملوك ، ولكن اشغلوا أنفسكم بالذكر والتضرع ، كى أكفيكم ملوككم » — رواه أبو نعيم في الحلية ، كذا في المشكاة ، وفي

«مجمع الزوائد» برواية الطبرانى . وفى الدر المنثور : أخرج ابن أبى شيبة عن مالك بن مغول ، قال : فى زبور داود مكتوب : إنى أنا الله لا إله إلا أنا ، فذكر معناه —

وتتضمن روايات عديدة هذا المعنى ، وفى الدعاء المأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا » . وقال الله تعالى :

(وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .
— سورة الأنعام —

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : حدثت أن موسى أو عيسى قال : يارب ! ما علامة رضاك عن خلقك ؟ قال : أن أنزل عليهم الغيث إبان زرعهم ، وأحبسه إبان حصادهم ، وأجعل أمورهم إلى حلمائهم ، وفيئهم فى أيدى سمحائهم ، قال : يارب ! فما علامة السخط ؟ قال : أن أنزل عليهم الغيث إبان حصادهم ، وأحبسه إبان زرعهم ، وأجعل أمورهم إلى سفهائهم ، وفيئهم فى أيدى بخلائهم . وجاء فى حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليولين الله عليكم شراركم ، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لكم » ، فالذين ينتظرون من خيارهم وصلحائهم دعاء ، أو يرون أن دعاءهم لا يستجاب لهم ، لا ينبغى أن يفوتهم التفكير فيما إذا كانوا منقطعى الصلة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقد ورد فى حديث آخر :

« وإذا أراد الله بقوم خيراً ولى عليهم حلماءهم ، وقضى بينهم علماؤهم وجعل المال فى سمحائهم ، وإذا أراد بقوم شراً ولى عليهم سفهاءهم ، وقضى بينهم جهالهم ، وجعل المال فى بخلائهم — كذا فى الجامع برواية الديلمى ، ورقم له بالضعف — وفى رواية : « إن الله تعالى إذا غضب على أمة لم ينزل بها عذاب خسف ولا مسخ ، غلت أسعارها ، ويحبس عنها أمطارها ، ويلى عليها أشرارها » .

كذا فى الجامع برواية ابن عساكر عن على رضى الله عنه ، ورقم له بالضعف ، ولكن رأيت أن الحديث له طرق عديدة بأسانيد شتى ، وتأيد بقوله تعالى :

(وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

على ما ورد تفسيره فى عدة آثار من «الدر المنثور» وغيره ، وفى مجمع الزوائد عن جابر أن الله عزوجل يقول : أنتقم ممن أغضب بمن أغضب ثم أصير كلا إلى النار ، رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه أحمد بن بكر الباسى ضعيف .

وجاء فى حديث : « لاتسبوا الأئمة ، وادعوا الله لهم بالصلاح ، فإن صلاحهم لكم صلاح » — كذا فى المجمع ، وفى الجامع برواية الطبرانى عن أبى أمامة — وفى حديث آخر : « لاتشغلوا قلوبكم بسبب

الملوك ، ولكن تقربوا إلى الله بالدعاء لهم ، يعطف الله قلوبهم عليكم »
— كذا فى الجامع برواية ابن النجار عن عائشة رضى الله عنها — وقال
مكى بن إبراهيم : كنا عند ابن عون فذكروا بلال بن أبى بردة ،
فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه ، وابن عون ساكت ، فقالوا : يا ابن عون
إنما تذكره لما ارتكب منك ، فقال : إنما هما كلمتان تخرجان من
صحيفتى لا إله إلا الله أحب إلى من أن يخرج منها لعن الله فلاناً —
إحياء العلوم ، للغزالى .

ويروى أن رجلا جعل يدعو على حجاج بن يوسف أمام رجل
صالح ، فقال له : لا تفعل ، فإن ما يقع الآن إنما هو من نتائج أعمالك
وأخاف أن حجاجاً إذا عزل أو يموت يولى عليك القردة والخنازير ،
أما القول السائر : « أعمالكم عمالكم » فضرب المثل ، وقيل : إنه حديث
والمعنى أن ولاتكم يكونون بحسب أعمالكم ، وعن واثلة بن الأسقع
رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من اتقى الله
أهاب الله منه كل شىء ، ومن لم يتق الله أهابه الله من كل شىء » .

إننى لا أريد بذكر هذه الروايات استقصاءها ، وإنما ذكرتها
كشهادة على أن النكبات التى تطرق أبوابهم وتلم بهم ، ليست عفواً ،
بل إنهم هم الذين مهدوا لها الطريق ، وفتحوا لها الأبواب ، بحيدهم عن
الصراط القويم ، وانحرافهم عن دينهم وأخلاقهم ، وأعمالهم التى لا تتفق
وشأنهم ، وقد سبقت الإشارة فى أقوال النبى صلى الله عليه وسلم ،

وفى كتب الحديث إلى أن المعاصى هى التى تجر الشقاء والنقمة من الله تعالى ، وأن الأعمال الصالحة ذريعة للصلاح والسعادة فى الدنيا والآخرة ، كما جاء التصريح بأن المعصية إذا كانت من نوع كذا تسبب النكبات والمصائب من نوعها أيضاً ، وكذلك الطاعة الخاصة تمهد الطرق إلى ما يشبهها من الأجر والثواب .

إننا نشكو الحوادث والنوازل ولا نفكر أبداً فيما يجر هذه الحوادث إلينا ، ويسبب تلك النوازل لنا ، بل ونرجو على ذلك أن نكرم بالجوائز ، ونعطى الأجر والثواب فى الدنيا ، وإذا أراد أحد أن ينصح لنا وينبهنا على هذا الخطأ الذى يصدر منا ، أخذناه بالعقوبة وطردناه من المجتمع . فليس مثلنا إلا كمثل المريض الذى يشكو الآلام والمرض ، ولا يمتنع عما يسبب له الآلام ويزيدها ، وكلما وصف له الطبيب ما يستعمله من الأدوية رفضها ، وسفهه .

ومما يبعث الحيرة والاستغراب الشديدين أننا نرى الناس لا يتلكأون أبداً إذا نبهوا على خطر أو خوف أن يهتموا بإزالته ، والابتعاد عنه ، والابتعاد عنه ، بكل ما يستطيعون من وسائل وإمكانات ؛ ولكن الناس أنفسهم لا يعيرون أهمية لكلام الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ ولا يعتنون بالأخطار التى نبه عليها وصرح بها فى أقواله وأحاديثه ، ولا يهتمون بما بين من النافع والضار من أعمال وأمور فى الحياة ، وذلك بالرغم مما ندعيه نحن المسلمين من حب الله ورسوله ، والفداء فى سبيله .

إذا نشر بلاغ رسمى من الحكومة ينص على أن إلقاء الخطاب إذا كان من نوع كذا جريمة يعاقب عليها المرء بسجن عشرة أعوام ، يحذر كثير من الخطباء الأقوياء ، والكتاب الشجعان ، من أن تبدر منهم كلمة يستحقون بها العقوبة . فيأخذون بالحيطة الدقيقة فى كلامهم ، أما إذا أعلن الملك الكبير وصرح الله سبحانه بتحريم الربا مثلا ، ويؤذن المرابين بالحرب — ويؤذن لمن آذى ولياً من أوليائه بالحرب أيضاً — ويلعن أصحاب الربا وشاربى الخمر ، فكم من الناس يبالون بهذا البلاغ العظيم ؟ ويفكرون فيما يصيبهم من النكبات والنوازل إذا لم يمتثلوا أمره ، يجب أن يفكر كل إنسان فيما يقوم به نحو أوامر الله وأحكامه ، إننا إذا كنا لا نرفض ما حرمه الله ، ولا ننتهى عما نهى عنه ، فلا بد من أن ننتظر عقاب الله ، ونستعد لمحاربة الله ، واحتمال لعنته ، ومواجهة النكبات والشدائد التى تنزل بنا .

وقد يستشكل بعض الناس من الخاصة ، فضلا عن العامة ، أن الحسنات والسيئات إذا كانت تحمل نفعاً وضراً للمسلمين ، فما بالها ليست كذلك للكافرين ، لأن النفع والضرر لا يتغيران بتغير الأشخاص والرجال ، غير أننا نرى الكافرين ينعمون فى الدنيا ، ويتمتعون باللذات والرفاهية ، من غير أن يمسهم شىء من أضرار أعمالهم السيئة ، بالعكس من المسلمين الذين ليسوا كذلك ، وقد جر هذا الاستشكال بعض الجهال إلى إنكار النصوص والأحاديث ،

واعتبروا مقياس النجاح والسعادة فى الدنيا الأمور التى وجدوها فى الكافرين ، ولا شك أن منشأ هذا الإشكال إنما هو الجهـــل بتعاليم الإسلام ، والإعراض عنها ، فلم يترك النبى صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه أى مدخل للشك والارتياب ، ولكن الغفلة بلغت بنا إلى حيث لا نفهم فيه الحقيقة .

ورد فى الحديث الشريف : « إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى عليها فى الدنيا ، ويثاب عليها فى الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسناته فى الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً » — كذا فى الجامع الصغير برواية مسلم وأحمد عن أنس . ورقم له بالصحة — وفى رواية أخرى : « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا ، وإذا أراد بعبـــده الشر أمسك عنه ذنبه حتى يوافى به يوم القيامة » — كذا فى الجامع برواية أنس ، وعبد الله ابن مغفل ، وعمار بن ياسر ، وأبى هريرة ، وعزاهم إلى المخرجين ، ورقم له بالصحة — .

وقد وردت روايات عديدة فى معنى أن الله سبحانه يعجل للكافر مثوبة أعماله الحسنة فى الدنيا ، وبما أنه لا ينال فى الآخرة أى ثواب وأجر ، يجزى على حسناته التى تصدر منه فى الدنيا ، ويعيش فى هناء ورفاهية أكثر الأحيان ، أما المؤمن فإن مركز جزائه ومثوبته هى الآخرة ، فيكفر الله عن سيئاته فى الدنيا بابتلائه فى الشدة

والضيق . وكلما زادت سيئاته وكثرت معصيته زاد شقاءاً فى الدنيا ، يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أمتى هذه أمة مرحومة ليس عليها عذاب فى الآخرة ، عذابها فى الدنيا ، الفتن والزلازل والقتل » — رواه أبو داود .

وهنا يشكل على بعض دارسى التاريخ أن بعض الأمم الماضية لم تؤخذ بالعقاب ما دامت مصابة بالمعاصى ، ومنطلقة عن حدود الدين ، ولكنها لما امتنعت عن المعاصى والمنكرات ، وتابت إلى الله ، أخذت بالعذاب ، فما السبب فى ذلك ؟ والجواب هو ما أسلفنا فى السطور الماضية ، وقد يجاب عليه أيضا بأنها خرجت عن حظيرة الدين ، ومست حدود الكفر ، واستغنت عن الله ، فاستغنى الله عنها كذلك ، ولكنها حينما اهتدت وثابت إلى الرشد والصواب ، ابتلاها فى الدنيا تكفيراً عن سيئاتها ، ووقاه لها من عذاب الآخرة . شأن المرض الذى يتعدى حدود الجراحية ، فلا تجرى عليه عملية الجراحية ولكن الطبيب إذا رجا أن الجراحية تنفع المريض يقوم بها .

انظر إلى معيشة النبى صلى الله عليه وسلم واستغنائه عن الدنيا ، يتحدث عنها عمر رضى الله عنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو مضطجع على رمال حصير ، ليس بينه وبينه فراش ، قد أثر الرمال بجنبه ، متكئاً على وسادة من أدم حشوها ليف ، فرفعت بصرى فى بيته ، فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر غير أهبة ثلاثة ،

فقلت يا رسول الله ! أدع الله فليوسع على أمتك ، فإن فارساً والروم قد وسع عليهم ، وأعطوا من الدنيا وهم لا يعبدون الله ، فجلس النبى صلى الله عليه وسلم وكان متكئاً ، فقال : « أو فى ذلك أنت يا ابن الخطاب ؟ إن أولئك قوم عجلوا طيباتهم فى الحياة الدنيا ، فقلت : يا رسول الله ! استغفر لى » — رواه البخارى .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله : لولا أن يجزع عبدى المؤمن لعصبت الكافر عصابة من حديد فلا يشتكى شيئاً . ولصببت عليه الدنيا صباً » .

وذلك كله لأن الدنيا لا تعدل جناح بعوضة عند الله ، فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لو كانت الدنيا تعدل جناح بعوضة عند الله ما سقى كافراً منها شربة ماء » . وفى حديث آخر : عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بجدى أسك ميت ، قال : « أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ » فقالوا : ما نحب أنه لنا بشىء ، قال : « فو الله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم » .

فى هذه الأحاديث دليل على أن الدنيا لا قيمة لها عند الله تعالى ، وأن الكفار لا يبتغون إلا الدنيا وحدها ، فيجزيهم الله على ما يصدر منهم من بعض الحسنات فى دنياهم ، والمسلم المؤمن يستحق ثواب الآخرة ، ومهما كان مبتلى بالمعاصى والسيئات ، لا بد له من أن ينال

ثواب الآخرة ، ويتمتع بنعيم الجنة ، بعد ما يجتاز مراحل العقوبة فى فى الدنيا ، ويقاسى فيها من آلام ومحن ، وذلك هو ما يبشر له بالخير فى الآخرة ، كما جاء فى الحديث : عن عقبة بن عامر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيت الله عز وجل يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج » ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) .

— رواه أحمد —

وجاء فى حديث آخر :

عن كعب بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح ، تصرعها مرة وتعدلها أخرى حتى يأتى أجله ، ومثل المنافق كمثل الأرزة المجذية التى لا يصيبها شىء ، حتى يكون انجعافها مرة واحدة » ـ متفق عليه ـ وهناك نصوص كثيرة كلها تدل على أن السبب فى سعادة الكفار فى الدنيا إنما هو الإملاء من الله سبحانه وتعالى ، وجزاء لأعمالهم الحسنة فى الدنيا ، فكل كافر يقوم بالعمل الطيب يجزى على ما فعل ، ولا يؤاخذ على كفره فى الدنيا ، أما المسلم فلا يترك حتى فى الصغائر من ذنوبه ، إلا ويؤاخذ عليه ، فكلما زاد المسلمون ذنوباً ومعاصى تحيط بهم النكبات والمشكلات ، فلا سبيل لنجاتهم منها إلا أن يجتنبوا الذنوب والسيئات ،

من الأعمال ، ويأمروا غيرهم بذلك ، يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه ، وماله ، وولده ، حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة » ـ رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح ـ وأيضاً عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا ، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافيه به يوم القيامة » ـ رواه الترمذى .

أما الكفار فإنما يعاقبون فى الدنيا بكثرة ظلمهم ، أو إسرافهم فى الفسق والفجور ، أو اعتدائهم على الأنبياء ، فإذا فعلوا لا يملى لهم الله ، بل يعجل لهم العقوبة التى تعم غيرهم ، وقصص الأمم البائدة التى ذكرها القرآن كلها شاهد عدل على ذلك ، كما أن تاريخ انقراض الدول يدل على أن الظلم حيثما كثر وتعدى الحدود نصر الله المظلوم ، وأيده بالروح والملائكة ، ويستجيب دعاءه ولو كان كافراً ، ولذلك فإن الحكام والأمراء ، والوزراء والأغنياء ، الذين يظلمون الناس لا يظلمونهم ، وإنما يظلمون أنفسهم ، ويمهدون الطريق لشقائهم ، سواء كان ذلك ظلماً إجتماعياً أو فردياً ،فإذا أخذهم الله بالويل والنقمة، لايجدون ملجأ يلجأون إليه ، وما قصة هلاك الأمم وانحطاط الدول إلا تفصيلا لهذا العنوان .

وهنا لا بد من تنبيه ، وهو أن الله سبحانه خالق الأسباب ، وقد فرق بين المؤمن والكافر فى تأثير هذه الأسباب ، فلا ينبغى أن نعتقد أن الذى ينفع الكافر ينفع المؤمن ، وأن مايضره يضر المؤمن،

أيضاً ، فإن مثل هذا الإعتقاد جهل بالدين ، وعدم وقوف على كلام الله ورسوله .

ومن ثم يجب أن نفهم جيداً أن المركز الأصيل لعقوبة الكفار هي الآخرة ، وقد يظهر شيء منها في الدنيا نظراً إلى بعض المصالح ، أما الحسنة التي يؤدونها ، والأعمال الطيبة التي يقومون بها ، فلا بد من أن يلقوا جزاءها من الله رب العالمين في هذه الدنيا ، وذلك لأنهم لا يؤمنون بالآخرة فكيف يترقبونها ، وبم يعللون تأخير الجزاء ، ومن المعقول أن ينالوا عقوبة إنكار الآخرة في الآخرة ، قال الله تعالى :

(وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارَ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)

— سورة السجدة —

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ)

— سورة الأحقاف —

وأسوق هنا عدة آيات من القرآن الكريم مما يوضح الموضوع :

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ) .

— سورة البقرة —

٢ (فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ) .

— سورة البقرة —

٣ (زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) .

— سورة البقرة —

٤ (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا) .

— سورة النساء —

٥ (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) .

— سورة الأنعام —

٦ (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

— سورة الأنعام —

٧ (تُرِيدُ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ)

— سورة الأنفال —

٨ (أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ) .

— سورة التوبة —

٩ (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

— سورة هود —

١٠ (اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ) .

— سورة الرعد —

١١ (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوماً مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً ، كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وما كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً) .

— سورة بنى إسرائيل —

١٢ (وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةَ الدُّنيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وأَبْقَى).

— سورة طه —

١٣ (أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ).

— سورة القصص —

١٤ (قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ).

— سورة القصص —

١٥ (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ).

— سورة القصص —

١٦ (إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ).

— سورة لقمان وسورة فاطر —

١٧ (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِـرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الآخِـرَةِ مِنْ نَصِيب).

— سورة الشورى —

سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن تفسير الآية: (مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيا) فقال: إن الله تعالى ستوفى جزاء أعمالهم بصحة أبدانهم وإدخال السرور إلى أنفسهم بزيادة الأولاد والأموال، وإلى ذلك تشير الآية الواردة فى سورة بنى إسرائيل:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ) يعنى أن الله تعالى يعطى من يشاء ما يشاء.

وعن سعيد بن جبير رحمه الله فى: (مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ) قال: يؤتون ثواب ما عملوا فى الدنيا، وليس لهم فى الآخرة من شىء

وعن قتادة رحمه الله فى: (مَنْ كانَ يرِيدُ الدُّنيا وَزِينَتَهَا) يقول: من كانت الدنيا همه وسدمه، وطلبته ونيته وحاجته، جازاه الله بحسناته فى الدنيا. ثم يفضى إلى الآخرة ليس له فيها حسنة، وأما المؤمن فيجازى بحسناته فى الدنيا، ويثاب عليها فى الآخرة.

وعن مجاهد رحمه الله فى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنيَا) قال : من عمل للدنيا لا يريد به الله وفاه الله ذلك العمل فى الدنيا أجر ما عمل .

وعن ميمون بن مهران رحمه الله قال : من كان يريد أن يعلم ما منزلته عند الله فلينظر فى عمله ، فإنه قادم على عمله كائناً ما كان ، ولا عمل مؤمن ولا كافر من عمل صالح إلا جزاه الله به ، فأما المؤمن فيجزيه فى الدنيا والآخرة بما شاء ، وأما الكافر فيجزيه فى الدنيا — الدر المنثور — .

وقد ورد فى تفسير الآية :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) عن محمد بن كعب قال : يعمل مثقال ذرة من خير من كافر ، يرى ثوابها فى الدنيا : فى نفسه وأهله ، وماله وولده ، حتى يخرج من الدنيا وليس عنده خير ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً من مؤمن ، يرى عقوبته فى الدنيا فى نفسه وأهله ، وماله وولده ، حتى يخرج من الدنيا وليس عليه شىء . وعلى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أمتى هذه مرحومة ، ليس عليها عذاب فى الآخرة ، إنما عذابها فى الدنيا ، الفتن والزلازل ، والقتل والبلايا » — كذا فى الجامع الصغير ورقم له بالصحة — .

كل هذه الروايات دالة على أن هذه الأمة تؤاخذ على خطاياها فى

هذه الدنيا رحمة عليها وكفارة من ذنوبها ، فإن لم تكن قد أصيبت بالبلايا على كثرة ذنوبها وآثامها لكان ذلك نذير خطر كبير بالنظر إلى معادها ومصيرها ، فالعلاج الوحيد لتوقى هذه الأمة المحمدية من المصائب والحوادث ، ومواجهة النكبات والخسائر ، إنما هو تركيز عنايتها بالاحتراس من المعاصى ، فإذا ما صدر منها شىء من الذنوب تندم عليه ، وتستغفر الله منه وتتوب إليه ، أما أن ترتع فى مراتع الذنوب والمعاصى ، وترجو السلامة من كل غضبة من الله ، فلا يكون ذلك ، ولن يكون .

وما دام المسلم يتظاهر بالإسلام ويرتكب المعاصى ، لا ينهض ولا يعز ، ولكنه إذا انقلب كافراً وقطع صلته بالإسلام ، يستطيع أن يتدرج فى الدنيا إلى مدارج العز والرفاهية ، وينال فيها جزاء كل الحسنات التى يقوم بها ، فعن سليمان بن عامر رضى الله عنه أنه قال : يا رسول الله ! إن أبى كان يصل الرحم ، ويفى بالذمة ، ويكرم الضيف ، قال : « مات قبل الإسلام ؟ » قال : نعم ! قال : « لن ينفعه ذلك ، ولكنها تكون فى عقبه ، فلن تخزوا أبداً ، ولن تذلوا أبداً ، ولن تفتقروا أبداً » .

هذا الحديث يرد على سؤال : أن الكافر بالرغم من سوء أعماله يعيش فى الدنيا فى بحبوحة من العيش والراحة ، لأن والديه قد خلفا له ثمار أعمالهما الطيبة ، ولا شك فى أن هناك نصوصاً كثيرة من

الكتاب والسنة ، تدل على أن مبدأ التقدم والرفاهية ليس أمراً مشاعاً بين الكافر والمسلم ، وقد يشاركان فى بعض الأمور ، أما مقياس التقدم للمسلمين فإنما هو تنفيذ الدين كله ، والاحتراس من المعاصى ، فكلما كثرت المعاصى كثرت البلايا والنوازل ، ولا ينبغى أن نقيس حياتنا على حياة الكفار الذين لا يصابون بالبلايا رغم صدور السيئات والمنكرات منهم ، بل إنهم يتقدمون فى جميع مراحل الحياة . كما لا ينبغى أن نأمن كل بلية ونازلة ، لأننا إذا فعلنا ذلك نكون قد نادينا المصائب ، أو استحققنا الاستدراج الذى لا تتأخر نقمته ، كما سبق أولا .

ولذلك فإن ارتجاء المسلمين السعادة مع اقتراف السيئات والمعاصى يرادف حرمانهم إياها ، كما أن النظر إلى الكفار واقتفاء خطاهم طمعاً فى المنافع ، وحرصاً على الرفاهية التى يتمتعون بها ، ليس مايسمى بالوقاحة فقط ، بل إنه يمهد الطريق إلى الخيبة والإخفاق .

كان من عادة الفرس والروم فى الحروب أن الفريق الغالب كان يقطع أعناق رؤساء الفريق المغلوب ، ويحمل رؤسهم إلى الأمير والحاكم ، تظاهراً بالفخر والغلبة ، فلما تحارب المسلمون فى عهد سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وانتصروا على أعدائهم فعلوا معهم مثل ما كانوا يفعلون ، وحملوا رأس أحد البطارقة الرومية مع عقبة بن عامر رضى الله عنه إلى سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

فلما بلغه أنكر ذلك أشد إنكار ، فقال له عقبة بن عامر : إنهم يصنعون بنا ، فقال : أتستنون بفارس والروم ؟ لا يحمل إلى رأس ، إنما يكفى الكتاب والخبر ، ولو أن الفقهاء أجازوا ذلك نظراً إلى بعض النصوص ، ولكن أبا بكر الصديق رضى الله عنه لم يرض ، وكره الاستدلال بالفرس والروم .

عن طارق بن شهاب قال : خرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى الشام ، وأبو عبيدة بن الجراح ، فأتوا على مخاضة ، وعمر على ناقة له ، فنزل عنها ، وخلع خفيه ، فوضعها على عاتقه ، وأخذ بزمام ناقته ، فخاض بها المخاضة ، فقال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين أأنت تفعل هذا ؟ تخلع خفيك ، وتضعهما على عاتقك ، فتأخذ بزمام ناقتك ، وتخوض بها المخاضة ؛ ما يسرنى أن أهل البلد استشرفوك ، فقال عمر : أوه ، لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة ! جعلته نكالا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام ، فمهما نطلب العزة بغير ما اعزنا الله به أذلنا الله . الحقيقة أن العز الحقيقى هو ما يمنحه الله ، ومن أكرمه الله بعزه ، لا يبالى بذلة الدنيا وأهلها .

وقد جاء فى الحديث ما معناه : أن من يطلب العزة فى الناس بمعصية الله ، ينقلب مادحوه ذامين له . فلم يعد للمسلمين طريق نحو السعادة والتقدم والعزة ، ولم يبق لهم طريق لتحقيق غايتهم من

الحياة ، إلا الحصول على رضا الله ، والعمل بمرضاته ، ومن العجب العجاب أن ينطلق المسلمون إلى تقليد الكفار والمشركين ، والأكل من فتات موائدهم ، ليحققوا لهم بعض النفع ، تاركين كتاب الله وسنة رسوله اللذين يفيضان نوراً وهداية ، ويدعوانهم إلى كل خير وتقدم وسعادة .

أليس هذا وقاحة ومقاطعة لله ولرسوله ؟ ! إن مثلهم فى ذلك كمثل المريض الذى يعيش مع طبيب كبير يعتبر مرجع الناس ، ويقصده المرضى من كل مكان ، ولكنه لا يراجع الطبيب فى أمره ، بل يعتمد على متطبب متطفل لا يؤمه المرضى ، ولا يشفيهم بعلاجه .

عن جابر رضى الله عنه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنسخة من التوراة فقال : يارسول الله ! هذه نسخة من التوراة ، فسكت فجعل يقرأ ، ووجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتغير ، فقال أبو بكر : ثكلت الثواكل ، أما ترى ما بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فنظر إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أعوذ بالله من غضب الله ورسوله ، رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفس محمد بيده ! لو بدا لكم موسى فاتبعتموه ، وتركتمونى ، لضللتم عن سواء السبيل ، ولو كان حياً وأدرك نبوتى لاتبعنى » .

لقد كان غضب النبي صلى الله عليه وسلم حقاً ، لأن المسلم ما لم يكن محيطاً بالكتاب والسنة ، وما فيهما من أحكام ونصوص ، لا يستطيع أن يستفيد من كتاب اختلط فيه الباطل مع الحق ، أما من كان عنده علم كاف بالدين ، وهو يميز الحق عن الباطل ، فلا بأس عليه أن يقرأ كتاباً ليس فيه حق محض ، لأنه لا يكاد يضل الطريق السوى ، لما عنده علم من الكتاب والسنة ، والتوراة عندما كان فيها من الأحكام ما نسخ ، وتناوله اليهود بالتحريف ، أبدى النبي صلى الله عليه وسلم غضبه على قراءته . خوفاً من أن يلتبس الأمر ، ويؤدى إلى الضلال .

وقال ابن سيرين رحمه الله : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم .

وعلى ذلك شدد العلماء والمشايخ النهى عن صحبة رجال لا تستقيم سيرتهم الدينية ، وعن استماع خطبهم وقراءة كتاباتهم لكى يتقى تأثيرهم السيء ، وما جاء فى المثل « انظروا إلى ما قال ، ولا تنظروا إلى من قال » فهو صحيح . يؤيد الذى جاء فى الحديث بألفاظ مختلفة ، « الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها » ولكن ذلك لا يأتى ما لم يكن المرء يتمتع بالتمييز بين الحق والباطل ، ويكون ناضج العقل خبيراً بقواعـــد الدين ، حتى يستطيع أن يقول : هذا حق ، وهذا باطل . هذا صواب ، وذاك معارض للكتاب والسنة .

والواقع أن صلاح المسلمين ونجاحهم ليس إلا فى اتباع الدين كاملا ، واقتداء أسوة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة السلف الصالحين مهما شوه المشوهون صورة الإسلام ، ورماه الكفار والمشركون بالرهبنة والتعصب ، والتاريخ الإسلامى الناصع الذى لا غبار عليه البتة يشير إلى أن الإسلام هو الذى أنقذ العالم من حيرة الضلال والانهيار ، وأضفى عليه حياة جديدة ، وقداسا وطهراً ، وأن المسلمين هم الذين حاربوا التقاليد الباطلة والعادات الوحشية ، وأعادوا كل شىء إلى نصابه ، وملأوا العالم خيراً وعدلا ، واستقامة ومعرفة بالحقوق ، فلم يكن يوجد من يرتكب السيئات . ويخالف القوانين الإسلامية العادلة ، حتى قالوا : لم يكن أحد يترك الصلاة إلا منافق ظاهر نفاقه ، وكلما حز بهم أمر أو مصيبة فزعوا إلى الصلاة .

يقول أبو الدرداء رضى الله عنه : إذا هبت ريح عاصفة فزع النبى صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ، ودخل المسجد ، ولم يخرج ما لم تنته ، وقد تحدث عديد من الصحابة رضى الله عنهم بطرق مختلفة عادة الرسول صلى الله عليه وسلم هذه ، وفزعه إلى الصلاة كلما حزبه أمر كما روى أحد الصحابة عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الأنبياء السابقين كانوا يفعلون ذلك ، وكان الصحابة رضى الله عنهم يتبعون أيضاً النبى عليه الصلاة والسلام فى ذلك ، وقد كانت الصلاة تحتل عندهم محلا رفيعا جداً، حتى أن سهام الأعداء ما كانت تقطع صلاتهم ، وما كانوا يسمعون

صوت الأذان إلا ويتركون تجارتهم وأعمالهم ، وقد كان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وجه تعليمات عن الصلاة إلى عماله ، وولاة أمور الحكم فى عهــده ، وأخبرهم بأن الصلاة أهم شىء عندى ، فمن حافظ عليها حافظ على الدين كله ، ومن أضاعها أضاع الدين كله .

وعندما بعث أبو بكر الصديق رضى الله عنه خالد بن الوليد إلى أهل الردة ، أمره بأن يقاتلهم على خمس خصال ، فمن ترك واحدة من الخمس قاتله : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت ، ولما بعث عتبة بن غزوان لقتال الفرس أوصاه بالتقوى ، فقال : اتق الله ما استطعت ، واحكم بالعدل ، وصل الصلاة لميقاتها ، وأكثر ذكر الله .

كانت واقعة أجنادين الشهيرة فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه، حارب فيها المسلمون ضد الروم ، فلما تراءى العسكران بعث قائد الروم رجلا عربياً ـ كعين له ـ فقال له : ادخل فى هؤلاء القوم ، فأقم فيهم يوماً وليلة ، ثم ائتنى بخبرهم ، فدخل فى الناس رجل عربى لا ينكر عليه ، فأقام فيهم يوماً وليلة ، ثم أتاه فقال له : ما وراءك ؟ فقال له: بالليل رهبان وبالنهار فرسان ، ولو سرق ابن ملكهم لقطعوا يده ، ولو زنى لرجم ، لإقامة الحق فيهم .

وقد وردت فى كتب الحديث قصة امرأة مخزومية سرقت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة الفتح ، ففزع قومها إلى أسامة ابن زيد يستشفعونه ، فلما كلمه أسامة بن زيد فيها تلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «أتكلمنى فى حد من حدود الله» ، قال أسامة: استغفر الله لى ! فلما كان العشى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : « أما بعد ! فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذى نفس محمد بيده ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

هذا ! وتزخر كتب الحديث بمثل هذه القصص التى تملأ قلوب الكفار رعباً ودهشة من المسلمين ، كما أن القائد الرومى حينما سمع مقالة الرجل العربى الذى بعثه عيناً إلى جيوش المسلمين ، قال : لئن كنت صدقتنى لبطن الأرض خير من لقائهم على ظهرها .

أسر المسلمون رومياً فانفلت من إساره وفر ، فلما وصل إلى هرقل ، سأله عن خبر المسلمين وقال له: أخبرنى عن أحوالهم بما تتمثل لى سيرتهم تماماً ، فقال له : إنهم رهبان بالليل وفرسان بالنهار ، ولا يأخذون من أهل الذمة شيئاً بغير مقابل ، يلتقون فيما بينهم بالسلام . فقال هرقل : إن كنت صادقاً فيما تقول ، فإنهم سيملكون موضع قدمى هاتين .

وكتب يزيد بن أبى سفيان إلى أبى بكر رضى الله عنه يخبره بما

جرى فى حرب أنطاكية : «أما بعد! فإن هرقل ملك الروم لما بلغ مسيرنا إليه ، ألقى الله الرعب فى قلبه ، فتحول ونزل أنطاكية» . وكتب أبو بكر رضى الله عنه معه بهذا الكتاب : «أما بعد ! فقد بلغنى كتابك تذكر فيه تحول ملك الروم إلى أنطاكية ، وإلقاء الله الرعب فى قلبه من جموع المسلمين ، فإن الله تبارك وتعالى - وله الحمد - قد نصرنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرعب ، وأيدنا بملائكته الكرام ، وإن ذلك الدين نصرنا الله فيه بالرعب هو هذا الدين الذى ندعو الناس إليه اليوم» .

لقد كان جيش هرقل كثيفاً بإزاء جيش المسلمين ، وأخبر بذلك عمرو بن العاص أبا بكر رضى الله عنهما ، فكتب إليه : «إنكم لا تغلبون بقلة عددكم ، وإنما تغلبون بالمعاصى على كثرة عددكم ، فاحترسوا منها» ، وذلك ما جعل المسلمين غالبين على كل شىء من البر والبحر ، والحيوانات من السباع والطيور عدا الإنسان ، ويزخر التاريخ بقصص انتصاراتهم التى تحوج إلى أسفار .

ذات مرة احتاج المسلمون إلى نصب معسكرهم فى إحدى غابات أفريقيا التى كانت تموج بالسباع والحشرات السامة ، فوصل عقبة بن عامر قائد الجيش إلى ناحية ببعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلن قائلا : أيها الحشرات والسباع ! نحن أصحاب رسول الله ، فارحلوا ، فإنا نازلون ، فمن وجدناه بعد قتلناه . وما هى إلا لحات قليلة إذ عم هذا الخبر فى أوساط هذه الحيوانات ، وارتحلت كلها تحمل أولادها .

وعن ابن المنكدر أن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخطأ الجيش بأرض الروم أو أسر ، فانطلق هارباً يلتمس الجيش ، فإذا هو بالأسد ، فقال : يا أبا الحارث ! أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان من أمري كيت وكيت ، فأقبل الأسد له بصبصة ، حتى قام إلى جنبه ، كلما سمع صوتاً أهوى إليه ، ثم أقبل يمشي إلى جنبه، حتى بلغ الجيش ، ثم رجع الأسد .

ولما حان الزحف على المدائن فى حرب الفرس كانت دجلة تعترض الطريق ، فأمر الكفار بنقل السفن منها لكى لا يعبرها المسلمون.وكانت أيام المطر ودجلة فائضة ، فأمر قائد الجيش سعد الفرسان أن يخوضوا النهر بأفراسهم ، فكانوا يمشون فى النهر مثنى تسبح أفراسهم ، وكان سلمان رفيق سعد رضى الله عنهما فى السباحة ، فكان سعد رضى الله عنه يكرر قوله : والله ليتصرن الله وليه ، وليظهرن دينه ، وليهزمن عدوه ، ما لم يكن فى الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات .

وبعث أبو بكر الصديق رضى الله عنه العلاء بن الحضرمى فى حرب المرتدين إلى البحرين ، فسلكوا مفازة ، وعطشوا عطشاً شديداً ، حتى خافوا الهلاك ، فنزل وصلى ركعتين ، ثم قال : ياحليم ، يا عليم ، ياعلى يا عظيم ، اسقنا ! فجاءت سحابة كأنها جناح طائر ، فقعقعت عليهم وأمطرت ، حتى ملئوا الآنية وسقوا الركاب .

وقال أبوهريرة رضى الله وكان فى هذا البعث : ثم انطلقنا حتى أتينا دارين ، والبحر بيننا وبينهم ، وفى رواية أتينا على خليج من البحر

ما خيض فيه قبل ذلك اليوم ، ولا خيض بعد ، فلم نجد سفناً ، وكان المرتدون قد أحرقوا السفن ، فصلى ركعتين ، ثم قال : يا حليم ، يا عليم يا على ، يا عظيم ، أجزنا ! ثم أخذ بعنان فرسه ثم قال : جوزوا بسم الله ، قال أبو هريرة : فمشينا على الماء ، فوالله ما ابتل لنا قدم ، ولا خف : ولا حافر ، وكان الجيش أربعة آلاف ، ويروى أنه كان العلاء بن الحضرمى ، ومن كان معه حواراً إلى الله تعالى فى خوض هذا البحر ، فأجاب الله دعاءهم ، وفى ذلك يقول عفيف بن المنذر وكان شاهداً معهم :

ألم تر أن الله ذلل بحره
وأنزل بالكفار إحدى الجلائل
دعانا الذى شق البحار فجاءنا
بأعظم من فلق البحار الأوائل

وهناك وقائع كثيرة لعبور البحار والأنهار وما شاكلها ، ولكن هذه القصص — أيها القارىء العزيز — ليست للتسلية والاستمتاع ، ولا لتزجية الوقت ، بل إنها مرآة يجب أن نرى فيها صورنا الكالحة ، فما من صغير ولا كبير إلا وقد أرشدنا إليه رسولنا العظيم فى أقواله ، وفرق لنا بين سبل الخير والشر ، فلما عمل بها السلف الصالح نجحوا وفازوا ، ونحن حينما لم نقم لها وزناً ، ولا عرفنا قدرها ، ولا أردنا اتباعه صلى الله عليه وسلم ، وقد خلت قلوبنا من خوف الله ، ذللنا

وامتهنا ، ولم تتمخض حياتنا بالسعادة والنجاح . اقرأوا التاريخ الإسلامى تروا كيف كان الخليفة يوصى الجيش وقائده ، وكم كان الجيش حريصاً على تنفيذ وصايا الخليفة ، انظروا كيف أوصى عمر سعداً رضى الله عنهما حينما أرسله إلى العراق وأمره عليها :

« يا سعد بن وهيب ! لا يغرنك من الله أن قيل : خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ، فان الله لا يمحو السىء بالسىء ، ولكن يمحو السىء بالحسن ، وإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا بطاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربهم ، وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عند الله بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ بعث إلى أن فارقنا عليه ، فالزمه ، فإنه الأمر . هذه عظتى إياك ، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك ، وكنت من الخاسرين » . ولما أراد فراقه قال له : « إنك ستقدم على أمر شديد فالصبر الصبر ! على ما أصابك ونابك ، تجمع لخشية الله ، واعلم أن خشية الله تجتمع فى أمرين : فى طاعته ، واجتناب معصيته ، وإنما طاعة من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة . وإنما عصيان من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة » .

— البداية والنهاية —

وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى » وقد كان الصحابة رضى الله عنهم قد

تفطنوا لهذه الكلية وعضوا عليها بالنواجذ . والحقيقة أن من آثر الاخرة على الدنيا ، وتحمل خسائرها بإزاء الآخرة ، فهو وإن أضر بدنياه فى ظاهر أمره غير أنه ليس ضرراً فى الواقع ، فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من كانت نيته طلب الآخرة جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت نيته طلب الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه ، وشتت عليه أمره ، ولا يأتيه منها إلا ما كتب له » .

وقد تواترت قصص الصحابة رضى الله عنهم والصالحين من عباد الله فيما يتصل بالدنيا وإتيانها راغمة إليهم ، وكيف لا يكون ذلك فإن الدنيا لم تخلق إلا لخدمتهم .

بعث سعد ذات مرة عاصم بن عمر أميراً على قليل من الجيش لفتح ميسان ؛ فلما وصل عاصم إذا بالمسلمين قد نفد ما كان عندهم من الزاد ، وبحثوا فلم يجدوا ، فلقيهم رجل من أهل فارس كان راعيـــاً بناحية من إحدى الغابات ، فسألوه عن لبن وحمالة من الدواب ، فكذبهم ، وقال : لا أدرى ، وإذا بثور خار فى الغابة ، وقال : كذب عدو الله ، ها نحن . فدخل عاصم الغابة . وجاء بالثيران منها ، ووزعها على الجيش .

وقال بعض المؤرخين : إن هذه القصة حدثت مع سعد رضى الله عنه فى القادسية ، ولكن لا مانع من أن تكون قد حدثت مع الرجلين

كليهما ، ولمـــا سمع الحجاج بن يوسف الثقفى بهذه القصة تعجب منها ، ودعا الذين شهدوها يطلب منهم تصديقها ، فقالوا : إننا سمعنا صوت الثور ، فسألهم عن قول الناس فى هذا ، فقالوا : إن الناس كانوا يستدلون بهذه الوقعة على رضا الله سبحانه عن المسلمين ؛ وأن نصر الله حليفهم ، فقال الحجاج : إن هـذا لا يكون إلا إذا كان الجيش كله تقياً ، فقالوا : إنا لا نعلم ماذا كان فى قلوب الجيش ، فأما ما رأينا ، فما رأينا قط أزهد فى الدنيا منهم ، ولا أشد بغضاً لها ، ليس فيهم جبان ، ولا غال ، ولا غدار .

ولا غرابة فيما إذا كانت البهائم تنطق ، أو تعرض نفسها لخدمة الصالحين من عباده ، فإن نطق البهائم مما تحكى عنه الأحاديث الصحيحة فقد جاء فى البخارى وغيره من كتب الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بينما رجل يسوق بقرة إذ أعيا فركبها ، فقالت : إنا لم نخلق لهذا ، إنما خلقنا لحراثة الأرض ، فقال الناس : سبحان الله ! بقرة تكلم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإنى أؤمن به أنا ، وأبو بكر ، وعمر ، وما هما ثم .... » .

وقال : بينما رجل فى غنم له إذ عدا الذئب على شاة منها فأخذها ، فأدركها صاحبها فاستنقذها ، فقال له الذئب : فمن لها يوم السبع ، يوم لا راعى لها غيرى ، فقال الناس : سبحان الله . ذئب يتكلم ،

فقال : أؤمن بها أنا ، وأبو بكر ، وعمر ، وما هما ثم » ـ المشكاة ، باب مناقب أبى بكر وعمر —

تحتوى كتب المعجزات على شىء كثير من مثل هذه الحكايات ، كما فى الشفاء للقاضى عياض ، فمن شاء فليراجعه ، إن هؤلاء الصالحين البررة من عباد الله حينما أخلصوا لله ، وتوكلوا عليه ، انقاد لهم كل شىء ، حتى الحيوانات والبهائم تستجيب لندائهم وتسعى لإسعافهم ويصدق عليهم المثل « كما تدين تدان » إن التاريخ يزخر بذكر حنينهم نحو الشهادة فى سبيل الله .

روى أبو داود أن النبى صلى الله عليه وسلم ضحى بمائة بدنة فى حجة الوداع ، ولما كان النبى صلى الله عليه وسلم ينحر البدن طفقن يزدلفن إليه خمس وست بدنات دفعة واحدة ، كل واحدة منها تحب أن يبدأ بها صلى الله عليه وسلم ، وعندما نرى فى الدنيا أن صغار الحكام الذين لا يملكون فى أمرهم شيئا يساعدون أتباعهم ومحبيهم بكل إمكانياتهم فكيف لا يحمى الله سبحانه عباده المطيعين ، ويمنع ظهرهم ، وقد وعدهم بذلك فى كتابه :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ)و(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ) .

كان الصحابة رضى الله عنهم قد فهموا هذه الحقيقة جيداً ، فكانوا يعيشون فى طاعة الرسول ، والنصر حليفهم فى كل وقت وما أن عثروا وزلوا فى أمر من الأمور إلا واجهوا مشاق ، وابتلوا بمحن ، كما وقع فى معركة أحد ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من الرماة بالثبات فى مكانهم على كل حال ، وكاد المسلمون يغلبون على عدوهم ، فلما رأوا أن الغلبة تمت للمسلمين أو تكاد ، ظن بعض أفراد من الرماة أن لا حاجة إلى البقاء فى المكان ، وخرجوا يتعاقبون الكفار ، وقد استنكر أميرهم خصلتهم هذه ، ولما خرجت الرماة من مكانهم ، أوتى المسلمون من قبلهم ، وكذلك اغتر بعض المسلمين يوم حنين بكثرتهم ، فأصيبوا بهزيمة وبلاء ، وإلى ذلك أشار القرآن ، فقال :

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِين) .

وفى حرب المرتدين قامت المعركة أولا مع طليحة الكذاب ، ففر منهم كثير ، وقتل عدد ، وفر طليحة أيضا ، وتشجع المسلمون ، وارتفعت هممهم . ثم وقع قتال عنيف مع جماعة مسيلمة ، قتل فيه آلاف من رجاله واستشهدت جماعة من المسلمين ، وكان خالد بن الوليد قائداً فى هذه المعارك فيقول : إنا لما فرغنا من طليحة الكذاب ، ولم تكن له شوكة

قلت كلمة — والبلاء موكل بالقول — : وما بنو حنيفة ، ما هى إلا كمن لقينا ، فلقينا قوما ليسوا يشبهون أحداً ، ولقد صبروا لنا من حين طلعت الشمس إلى صلاة العصر .

يعنى أنه يتأسف على ما بدر منه ذلك القول ، الذى أدى إلى شدة المقاومة ، وطول المدة ، وذلك ما جعل الخلفاء الراشدين يؤاخذون بأدنى شىء ، وينبهون على أقل خطأ ، عندما كان خالد بن الوليد يلى حرب العراق كتب إليه أبو بكر الصديق رضى الله عنه :

« أما بعد ، فدع العراق واخلف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه ، وامض مختفيا فى أهل القوة من أصحابك ، الذين قدموا معك العراق من اليمامة ، وصحبوك فى الطريق ، وقدموا عليك من الحجاز ، حتى تأتى الشام ، فتلقى أبا عبيدة ، ومن معه من المسلمين ، فإذا لقيتم فأنت أمير الجماعة ! والسلام » . . وكان فيما كتب إليه به أن : « سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شجوا وأشجوا ، وإياك أن تعود لمثل مافعلت فإنه لم يشج الجموع بعون الله سبحانه أحد من الناس إشجاءك ، ولم ينزع الشجا أحد من الناس نزعك ، فلتهنئك أبا سليمان النعمة . والحظوة ، فأتمم يتمم الله لك . ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل . وإياك أن تدل بعمل . فإن الله تعالى له المن ، وهو ولى الجزاء » .

لقد كان هؤلاء الناس يهتمون كثيراً بالزجر والتنبيه على أمور

لا تسترعى الانتباه بوجه عام ، وكانوا يؤخذون على المعاصى أشد المؤاخذة .

ذات مرة ألح عمر بن الخطاب رضى الله عنـــه على عزل خالد ابن الوليد عن قيادة الجيش ، أيام خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى أمر حدث له . ولـكن أبا بكر رضى الله عنه لم يرض به ، فلمـا كانت خلافة عمر رضى الله عنه ، وأجاز خالد أحد الشعراء بجائزة قيمة طلبه عمر رضى الله عنه ، وقد شدت يداه إلى عنقه .

وقد كتب عمر رضى الله عنه مخرجه أول مرة إلى أمراء الأجناد : أن يوافوه بالجابية ليوم سماه لهم فى المجردة ، وأن يستخلفوا على أعمالهم فلقوه حيث رفعت لهم الجابية . فكان أول من لقيه يزيد ، ثم أبوعبيدة ، ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير . فنزل وأخذ الحجارة فرماهم بها . وقال : سرع ما لفتم عن رأيكم ، إياى تستقبلون فى هذا الزى ، وإنما شبعتم منذ سنتين ، سرع ما ندت بكم البطنة ، وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم . فقالوا : يا أمير المؤمنين ! إنها يلامقة ، وإن علينا السلاح . قال : فنعم إذاً . وركب حتى دخل الجابية — تاريخ الطبرى — .

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه لمـا فتحت ميسان فى أيامه ، ولاها النعمان بن عدى بن نضلة بن عبد العزى بن حرثان بن

عوف بن عبيد بن عويج بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب ، وكان من مهاجرة الحبشة — ولم يول عمر أحداً من قومه بنى عدى ولاية قط غيره — لما كان فى نفسه من صلاحه ، وأراد النعمان امرأته معه على الخروج إلى ميسان فأبت عليه ، فكتب النعمان إلى زوجته :

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها
بميسان يسقى فى زجاج وحنتم
إذا شئت غنتنى دهاقين قرية
وصناجة تجثو على حرف ميسم
فإن كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى
ولا تسقنى بالأصغر المتثلم
لعل أمير المؤمنين يسوؤه تنادمنا فى الجوسق المتهدم

فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم

(حَمَ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِن اللهِ العزيز الْعَلِيم ، غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ،شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ ،لاَ إلهَ إلاَّ هُوَ) أما بعد فقد بلغنى قولك :

لعل أمير المؤمنين يسوؤه
تنادمنا فى الجوسق المتهدم

وأيم الله لقد ساءنى ذلك ! وقد عزلتك ، فلما قدم عليه قال له : والله ما كان من ذلك شيء ، وما كان إلا فضل من شعر وجدته ؛ وما شربتها ، فقال عمر : أظن ذلك ، ولكن لا تعمل لى عملا أبداً — معجم البلدان —

انظروا إلى هذه الشدة فى أمر الله ، والأخذ بالحيطة على كل خطوة وفى كل مجال ، فإن ذلك هو السر فى ارتفاع هؤلاء الناس إلى منازل عالية فى الدنيا والآخرة ، فلما ظهرت منهم معصية أصابهم ضررها ، كما مرت أمثلة ذلك آنفا ، وكلما كانوا أرفع منزلة كان أخذ الله أشد ، مهما صدر منهم ذنب حقير ، ، وهذا مما يعقل ، إذ أن المثل السائر يقول : « حسنات الأبرار سيئات المقربين » وقد نبه الله سبحانه نبيه العظيم على ما صدر منه من إيثار شخص كان يرجو إسلامه ، ويتكلم معه ، على الأعمى الذى جاءه ، على أن ذلك لم يكن إلا للدين فحسب ، وبالعكس من ذلك كلما كان المرء من طبقة عادية ، صفح عنه فى صغائر الذنوب ، وأخذه فى كبائرها .

إن جزيرة « سردانية » الشهيرة فتحت حوالى سنة ٩٠ هـ ، وقد كثر فى هذا الفتح غلول . فلما كانوا فى السفينة راجعين هتف هاتف غيب وقال : اللهم أغرقهم . فغرقوا .

لقد ذكرنا أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم فى أول هذا المقال وهذه الوقائع أمثلة لها والتاريخ الماضى يزخر بذكرها . أما ما يجرى

اليوم فى عالمنا فهو ماثل أمام الأعين إننا نحن المسلمين لم نترك سببا من أسباب البعد عن الله إلا وقد أخذنا عليه بالنواجذ ولا سيئة من سيئات إلا واعتنقنا ولا تزال النكبات والويلات تحيط بنا جماعة المسلمين وتراود أنفسنا . وقد بدأ التنصل عن فروع الدين وأحكامه يعمل عمله فى مجتمعنا .

وكل ذلك يحتاج إلى حل سريع ، وعلاج ناجع ، ولكن هذا الحل وذلك العلاج ليس إلا فى الرجوع إلى الدين ، والتمسك به والاحتراس من المعاصى .

إن كلاماً مثل هذا يسمى فى مصطلح اليوم « رجعية » فمن يجاهر بـ « الرجعية » ، ومن يؤثرها على « التقدمية » !

فإلى الله المشتكى وهو المستعان ؟

نقله إلى العربية

سعيد الأعظمى الندوى

أستاذ دار العلوم لندوة العلماء لكنهؤ — الهند

المكتبة الإمدادية

باب العمرة ، بمكة المكرمة ، صاحبها أخونا الأستاذ ملك عبدالحفيظ

أهداف المكتبة

بقلم : تقى الدين الندوى المظاهرى

طبع وتوزيع جميع مؤلفات المحدث الكبير العلامة الشيخ محمد زكريا المعروف بـ « شيخ الحديث » فى شبه القارة الهندية . يقول الأستاذ أبو الحسن على الندوى فى «مقدمة أوجز المسالك» عن فضيلة الشيخ محمد زكريا : « ليس الحديث له صناعة ، وعلما فحسب ، بل هو ذوق ، وحال يعيش به ، ويعيش فيه » .

وللشيخ مؤلفات كثيرة يبلغ عددها نحو مائة وخمسين مؤلفاً .

وكذلك طبع وتوزيع جميع مؤلفات داعية الإسلام المصلح الكبير فضيلة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى ، كما تقوم المكتبة بطبع وتوزيع الكتب الدينية والإسلامية الأخرى ، وخاصة كتب الحديث النبوى الشريف وأصوله .

ونرجو من الله أن يحقق للمكتبة كل نجاح وتوفيق فى أهدافها الخيرة ويتقبلها بقبول حسن بفضله وإحسانه .